

تحولات دلالة العاقل وغير العاقل في لغة القرآن الكريم

Transformation of rational and non-rational in the language of Holy Quran

صالح خطاب / طالب دكتوراه

أ.د. رايح دوب

جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

Salahk9@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/06/10 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى توضيح مفهوم العاقل (العالم) ومفهوم غير العاقل انطلاقاً من "ما" و"من" الموصوليتين وصولاً إلى كل من الدال على العاقل أو غير العاقل من الأسماء؛ كما يرمي المقال إلى توضيح التحول الدلالي الذي يأخذ فيه غير العاقل دلالة العاقل حين يحمل على فعل العاقل أو على صفته أو حين يراد تعظيمه لذاته أو لغيره. وفي مقابل ذلك يأتي العاقل بدلالة غير العاقل عند تصغيره أو تحقيره، ولا بد من مراعاة التفسير الدقيق والسياق لإثبات التعظيم والتحقير.

الكلمات المفتاحية:

العاقل. غير العاقل. الدلالة. التحول. اللغة.

Abstract:

This article aims to clarify the concept of the rational and the concept of the non-rational, starting from Ma (what) and Man (who) (relative nouns) coming to each of the rational or the non-rational from the nouns. The article aims also to clarify the semantic transformation in which the non-rational nouns take the significance of the rational ones, when they impose on their action or on their character or when they denote self glorification or others.

On the other hand, the rational comes in the sense of the irrational when minimizing or demeaning. It is needed to take care about the precise interpretation and the context to prove glorification and contempt.

Keywords:

Rational- non-rational- significance- transformation – language.

مقدمة:

لقد حاول النحاة والمفسرون وأصحاب المعاجم ومن سعى سعيمهم أن يحيطوا بما في العربية كلٌّ في مجال بحثه وميدان صناعته، فقعدوا وفسروا، وعمّموا وخصّصوا، واستثنوا وصنّفوا، فاتفقوا واختلفوا لكنهم حدّدوا السمات وبيّنوا المنهج. ولسنا هنا بصدد إحصاءٍ أو تعديدي، إنما لنستدرك بآبٍ قد لا يكون استوفى حقه من البحث والتمحيص والتدليل، فكان الاختلاف فيه بيّنًا، والتفصيل له ضربًا من التخمين يستقيم هنا ويرجّح، ويستحيل هناك ويقبح، ولعلّ من أبرز ما كان التخمين فيه طاغيا مسألة العاقل وغير العاقل في العربية عموما، وفي لغة القرآن الكريم خصوصا.

لعلّ بعض الموضوعات التي تطرق لها النحاة بمعزل عن أهل الدلالة كمسألة العاقل وغير العاقل في اللغة العربية، إنما طُرقت من منظور المعلوم المتداول فأوجدوا لبعضها تخريجا، واكتفوا في معالجتها ببعض جزئياتها في مسائل محددة، واستعملات محدودة وتركوا ما خرج عن ذلك من دلالات ولم يتطرقوا له بالتدقيق، فالتبس الأمر على المتعلّم والدارس.

فإذا كان النحاة قد وضعوا القواعد وقعدوا ممّا ورد في كلام العرب فإنّ بعض المسائل في القرآن الكريم خالفت بعض قواعدهم وتجاوزت محاورهم، (على الرغم من أنهم أوردوا شبيهاتها من كلام العرب)، ليس لأنّ ما وضعه النحاة كان ناقصا مضطربا، وإنما لأنّ بعض الموضوعات لا يمكن أن تُطرح نحوًا محضا بمعزل عن الدلالة؛ فالعاقل وغير العاقل والإشارة إليهما بالإشراك أو الإضممار تتطلب حكما لا يخضع لعلم النحو بقدر ما تفصل فيه الدلالة، ولا يمكن للدلالة أن تفصل فيه بحكم قطعي لأنه متعلق بالقصد التواصلية؛ فجاء الدال على غير العاقل بدلالة العاقل، كما جاء مدلول العاقل بدال غير العاقل.

وإذا كان العاقل ظاهرا وغيره ظاهرا أيضا فقد ورد في القرآن الكريم الكثير من نماذج غير العاقل بصفة العاقل وهو الذي عُيّننا بتبينه في هذه الورقية البحثية.

لقد اكتفى النحاة بالتفصيل للاسمين الموصولين "ما" و "من"، ولم يهملوا الإشارة إلى دلالة كل منهما في الأصل، ومدلولهما المتداول، وسار المفسرون إلى أبعد من ذلك فتأولوا للفظين دلالة في كل موضع، ومدلول يتطابق مع معنى النص المفسّر في تركيبه وسياقه، من دون مراعاة أن الذي انطبق هنا قد لا ينطبق أو قد يناقض الواقع هناك، فاختلفت الدالان المختلفان والتبسّت على المتعلم الدلالة، فبديّا كأنهما مترادفان لمعنى واحد حينًا، ويغيب ذلك أحيانا أخرى.

إن مسألة "العاقل" (العالم) و "غير العاقل" في العربية عموما وفي لغة القرآن الكريم خصوصا تفصل فيما الدلالة وتميز بين طرفيها، فهل للدال الواحد (مَن) أو (مّا) أكثر من مدلول، أم أن للمدلول دالين مختلفين صوتا ورسما؟ وهل هناك شروط. في المراد تبليغه. تحدد الدلالة، وتحقق بها استقامة التركيب وأصولية المعنى؟

لقد أجاب النحاة عن هذا الإشكال، وأسهب المفسرون فيه، لكن الجانب الذي لم ينل حظه من الدرس والتمحيص هو غير العاقل حين يُحمل على أنه عاقل إن في اسمي الموصول (مَنْ) و(مَا)، أو في أسماء الجمادات والحيوان.

لقد حدد علماء العربية أن "من" تكون للعاقل، فإن دلت على الله تعالى صارت للعالم، وجاز أن يكون العاقل عالماً أما "ما" فلغير العاقل، غير أنها أحياناً تكون للعاقل ولغيره كما سيأتي.

كما تحدث النحاة عن جمع غير العاقل جمع تكسير غالباً، وأحياناً جمع مؤنث سالم لما كان مفرداً مؤنثاً، فهذا "جبل" وجمعه "جبال"، فإن أُسند إليه فعل صار مفرداً مؤنثاً ارتفعت الجبال، وإن وُصف جاءت صفته مفردة مؤنثة ولو كان جمع مذكر فيقال: جبال عالية، وإن أُضمر له (عَوْض بضمير) كان بهاء المفرد المؤنث كما في قوله تعالى: "والجبال أرساهم"³²؛ وكذلك يشار إلى جمع غير العاقل باسم الإشارة المفرد المؤنث هذه أو تلك كقوله تعالى: "وتلك الأيام نداؤها بين الناس"¹⁴⁰ عملك. فما مقتضى ذلك؟ ومتى يكون خلافاً لمفرده ومثناه؟

ومن هنا فإن هذا المقال يتناول غير العاقل الذي ورد في القرآن الكريم بصفة العاقل أو بخصائصه، إن في الاسم الموصولين (من / ما) أو في غيرهما من الأسماء والصفات.

إننا هنا نحاول إيجاد تفسير جامع، بل قاعدة تتحدد بموجبها الاختلافات بعيداً عن التخمين واعتماد الإسقاط والتخريج الذي يصدق على هذا الجانب ولا يصدق في ذلك. ولأجل أن تتمكن من ذلك تبيناً وتوضيحاً كان لزاماً أن نستعرض أهم ما قال النحاة واعتمده المفسرون في الفرق بين "مَنْ" و"مَا"، وكيف فسروا تداخلهما، ثم نعرض إلى مسألة غير العاقل عموماً بشواهد وبيّنات من الذكر الحكيم إن شاء الله.

أولاً: "مَنْ" التي للعاقل (العالم) و"مَا" التي لغير العاقل:

تناول النحاة "ما" الاسمية و"مَنْ" وبينوا إعرابهما ووظائفهما النحوية من حيث اسميتهما وما تستوجبه هذه الاسمية من وصل وتعريف، وامتناع تنكيرهما ولزومهما البناء ودلالتهما المطلقة على العدد، فهما للمفرد والمثنى والجمع، مؤنثا كان أم مذكراً، وهما تشتركان في كل ما يتعلق بالنحو والوظيفة النحوية، لكنهما تختلفان في الدلالة على مدلول كلٍّ منهما فتميزت "ما" بغير العاقل ودلت "من" على العاقل.

1: أهم ما قال النحاة في "ما" و"مَنْ": من أبرز ما ورد في كتب النحو المشورة لبعض أعلام النحاة:

1-1: جاء في أوضح المسالك لابن هشام الأنصاري:

(... والمشارك ستة: "مَنْ" و"ما" وأي وأل وذو وذا، فأما "مَنْ" فإنها تكون للعالم، نحو: "ومن عنده علم الكتاب" ولغيره في ثلاث مسائل: إحداهما أن ينزل منزلته، نحو من لا يستجيب له. وقوله أسرب القطا هل من يعير جناحه. وقوله: ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي. فدعاء

الأصنام ونداء القطا والطلل سوَّغ ذلك. (الثانية) أن يجتمع مع العاقل فيما وقعت عليه من نحو "كمن لا يخلق" لشموله الآدميين والملائكة أو الأصنام، ونحو: "ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض" ونحو: "من يمشي على رجلين فإنه يشمل الأدمي والطنائر. (الثالثة) أن يقترب به في عموم فُصِّل بمن، نحو "من يمشي على بطنه" و "من يمشي على أربع" لاقتربها بالعاقل في عموم كل دابة.

وأما "ما" فإنها لما لا يعقل وحده نحو: "ما عندكم ينفد". وله مع العاقل، نحو: "سبح لله ما في السماوات وما في الأرض." ولأنواع من يعقل نحو "فانكحوا ما طاب لكم من النساء." وللمهم أمره كقولك وقد رأيت شيحا: "انظر ما ظهر"¹.

2-1: جاء في حاشية الصبَّان:

1-2-1: استعمال "من" في غير العاقل لعارض تشبيهه أو تغليب العاقل أو اختلاط:

والمشترك من الموصول ستة: من وما وأل وذو وأي على ما سيأتي شرحه، وقد أشار إليه بقوله (وَمَنْ وَمَا وَأَلْ تُساوي) أي في الموصولية (مَا ذُكِرَ) من الموصولات (وهكذا ذُو عند طَيِّ قد شُهِرَ) بهذا فأما "مَنْ" فالأصل استعمالها في العالم وتستعمل في غيره لعارض تشبيهه به كقوله:²

أسرب القطا هل من يُعيرُ جناحَهُ لعلِّي إلى من قد هويت أطيْرُ

وقوله:

ألا عمَّ صباحا أيها الطلُّ البالي وهل يعمَّن من كان في العُصر الخالي

أو تغليب عليه في اختلاط نحو (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض)³ (الحج 18) أو اقترانه به في عموم فصل بـ (من) نحو (فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) (النور⁴⁵)، لاقتربها بالعاقل في كل دابة. وتكون بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، مفردا كان أم مثنى أم جموعا، والأكثر في ضميرها اعتبار اللفظ نحو (ومنهم من يؤمن به) (يونس⁴⁰)، (ومن يقنت منكن) (الأحزاب³¹)، ويجوز اعتبار المعنى نحو (ومنهم من يستمعون إليك) (يونس⁴²)، ومن قوله:

تَعَشَّ فان عاهدتني لا تخُوني نَكُنْ مثل من يا ذئب يصطحبان

2-2-1: استعمال "ما" ودلالاتها:

تستعمل "ما" أصلا لغير العاقل، لكنها تستعمل للعاقل إذا اختلط غير العاقل بالعاقل أو حمل على صفاته.

"وأما ما فإنها لغير العالم نحو (ما عندكم ينفدُ) (النحل⁹⁷)، وتستعمل في غيره قليلا إذا اختلط به نحو (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) (الجمعة¹) وتستعمل أيضا في صفات العالم⁴ نحو (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) (النساء³)، وحكى أبو زيد: سبحان ما يسبح الرعد بحمده،

وسبحان ما سخركنَّ لنا. وقيل بل هي فيها لذوات من يُعقل. وتستعمل في المهم أمره كقولك -وقد رأيت شبحا من بعد- انظر إلى ما رأى؛ وتكون بلفظ واحد كمن⁵.

وقد نلاحظ أن الأمر أوضح من أن تستعمل "من" في غير العاقل (العالم) في عارض تشبيهه أو في اختلاط العالم بغير العاقل، وأيسر من ذلك كله وأوضح أنّ غير العاقل حين يُحمل على فعل العاقل يأخذ دلالته، للإعارة من أفعال العاقل التي لا تصدر إلا منه والسجود فعل كُلف به العاقل، وستعرض تفاصيل أخرى فيما احتجّ به في موضعه. فمن قام بفعل العاقل وجب أن يحمل دلالة فاعله العاقل، وأيسر لنا القول بحلول "من" محلّ "ما" في نحو ما سبق.

1-3: جاء في شرح المفصل لابن يعيش:

1-3-1: اسمية "من" و"ما" ودلالتهما: تحدث المفصل عن اسمية "ما" و"من" وعن دلالة كل منهما فقال:

"وأما" مَنْ فإتّها تكون بمعنى" الذي"، وتحتاج من الصلة إلى مثل ما احتاجت إليه" الذي"، إلا أنّها لا تكون إلاّ لذواتٍ مَنْ يعقل، وهي اسم بدليل أنّها تكون فاعلة، نحو قولك: "جاءني من قام"، فموضعُ" مَنْ" رفعٌ بأنه فاعل، ومفعولةٌ، نحو: "رأيت مَنْ عندك"، فيكون موضعها نصبًا بأنه مفعول به، كما تكون الأسماء كذلك. ولا بد لها من ضمير يعود إليها، وذلك من خصائص الأسماء. ويدخل عليها حروف الجرّ، نحو قولك: مررت بِمَنْ عندك. قال الله تعالى: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} (ال عمران¹²⁹)، وهي مبنية كما كانت "الذي" كذلك، لأنّ ما بعدها من الصلة من تمامها فهي بمنزلة بعض الاسم⁶، وبعض الاسم مبني لا يستحق الإعراب وذلك نحو قولك "جاءني مَنْ عندك"، أي: الذي عندك. قال الله تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ} (الأنبياء¹⁹) إلا أنّها تُفارق "الذي" في أنّها لا توصف كما توصف "الذي"، ولا يوصف بها كما يوصف بـ"الذي"، ألا تراك تقول: "جاءني زيد الذي قام"، و"جاءني الذي قام الظريف"، فتصف "الذي"، وتصف بها، ولا تفعل ذلك في "مَنْ"؛ لخروجها عن شَبّه الأسماء المتمكّنة، وشبّهها بالمضمرات بنقْص لفظها. ألا ترى أنّها على حرفين، والأسماء الظاهرة لا تكون على أقل من ثلاثة أحرف. فلما بُعدت من الظاهر، لم توصف، ولم يوصف بها. وليس كذلك "الذي" فإنّها على ثلاثة أحرف، إذ أصلها "لِذٍ"، مثل: "عم" و"شج".

1-3-2: دلالة "من" على غير العاقل في كناية الجمع لتغليبها عند الاختلاط:

...فإن قيل: إذا زعمت أنّها لا تقع إلاّ على ذواتٍ مَنْ يعقل، فما تصنع بقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} (النور⁴⁵) والذي يمشي على بطنه، والذي يمشي على أربع ليسوا من العقلاء؛ لأنّ الذي يمشي على بطنه من جنس الحيّات، والذي يمشي على أربع من جنس الأنعام والخيل فالجواب أنّه لما خلط ما يعقل وما لا يعقل، غلب جانب من يعقل، وذلك أنه قال: "فَمِنْهُمْ"، فجمع كناية من يعقل

وما لا يعقل بلفظ ما يعقل، فلما كان كنايةً الجمع الذي فيه ما يعقل وما لا يعقل مثل كناية الجمع الذي ليس فيه ما لا يعقل، كان تفصيله كذلك، و"مَنْ"، مواضع غير ذلك تُذكر فيما بعد⁷. لقد فصل ابن يعيش في شرحه لمفصل الزمخشري في اسمية "ما" و"من" وبين إعرابهما واستعمالهما، واحتاط لقوله: "لا تقع إلا على ذوات العقل" بالحديث عن اختلاط من لا يعقل بمن يعقل وذكر كناية الجمع الذي فيه من يعقل واستدل بـ "ومَنهم" من قوله تعالى: "ومَنهم من يمشي على بطنه ومَنهم من يمشي على أربع"^{النور 45} ولم يكن ذلك أدل ولا أوضح ولا أيسر من القول بحلول "من" محل "ما" عندما يحمل غير العاقل على فعل العاقل.

وحكى أبو زيد من قول العَرَبِ سَبْحَانَ مَا سَخَرَكُنْ لَنَا، فأجرى "ما" على القديم سبحانه، وهذا ونحوه محمول عندنا على الصفة، وقد ذكرنا أنها تقع على صفات من يعقل، فقوله: { مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النَّسَاءِ } بمعنى: الطَّيِّبِ مِنْهُنَّ. وقوله: { وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا }، بمعنى: الباني لها في أحد القولين، والقول الآخر أن يكون بمعنى المصدر، أي: وبنائها. وقولهم: سبحان ما سخركن لنا بمعنى المُسَخَّرِ، ومهما جاء من ذلك، فمتأوَّلٌ على ما يرجعه إلى ما أصلنا، ولها مواضع تُذكر أقسامها فيها فيما بعد، إن شاء الله⁸ من يدقق النظر في قول المصنف أو الشارح في "ما" التي حلت محل العالم في قول العرب: "سبحان ما سخركن لنا"، يُلف أنه تلافى الخوض في دلالتها من حيث أنها استعملت للعالم وهو ما يثبت لغير العاقل، وأجاب بأسلوب الحكيم تضعيفا للقول أو إنكارا له أو استنكارا، وإن لم ينف استقامته قطعاً ويذكر ذلك صراحة، إلا أنه أشار إلى أنه وغيره -مما لم يُمثل له - محمول على الصفة عندهم، وتحاشى الخوض فيه حتى قال: "ومهما جاء من ذلك، فمتأوَّلٌ على ما يرجعه إلى ما أصلنا..." وهو ما يوجب بأنه اجتهد في إعادة الأمر إلى تأصيله وإن لم يقطع فيه بحكم لأنه يضعف ما يقال ولا يتبناه قطعاً.

4-1: وجاء في شرح ابن عقيل:

ومن وما وألتساوي ما ذكر ... وهكذا ذو عند طيء شهر
وكالتي أيضا لديهم ذات وموضع اللاتي أتى ذوات

1-4-1: "من" و"ما" ودلالاتهما على الجنس والعدد:

أشار بقوله تساوي ما ذكر إلى أن "من" و"ما" والألف واللام تكون بلفظ واحد: للمذكر والمؤنث المفرد والمثنى والمجموع فتقول: جاءني من قام ومن قامت ومن قاما ومن قامتا ومن قاموا ومن قمن وأعجيني ما ركب وما ركبت وما ركبا وما ركبتا وما ركبوا وما ركبن وجاءني القائم والقائمة والقائمان والقائمتان والقائمون والقائمات.

2-4-1: أكثر استعمالات "ما" في غير العاقل:

وأكثر ما تستعمل "ما" في غير العاقل وقد تستعمل في العاقل ومنه قوله: تعالى: {فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى} وقولهم: سبحان ما سخركن لنا وسبحان ما يسبح الرعد بحمده.

3-4-1: أكثر استعمالات "من" في العاقل:

و"من" بالعكس فأكثر ما تستعمل في العاقل وقد تستعمل في غيره، كقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) ومنه قول الشاعر: بكيت على سرب القطا إذ مررن بي ... فقلت ومثلي بالبكاء جديرٌ

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ؟⁹

ولعل ابن عقيل في شرحه للألفية لم يفصل تفصيل الصبان ولا الزمخشري، ولم يخض في ما خاض فيه ابن يعيش، إنما اكتفى بما عرف من أقوال أئمة النحو وبما ألمّ به من تفاصيلهم فأجزها في: "أن أكثر ما تستعمل "ما" في العاقل وأكثر ما تستعمل "من" في غيره دونما تفصيل كأنما ادخر التفصيل لما ختم به كلامه عن المقالة التي قال إنها من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة... ويعني بذلك قول الكافرين اتخذ الله ولداً.. سبحانه تنزهه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. وهو قوله: "ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة. أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى، قبل أن يضرب عن مقالهم ويستدل على بطلان دعواهم. وكان ذكر التنزيه أسبق، لأن فيه ردعاً لمدعي ذلك، وأنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس، ثم أخذ في إبطال تلك المقالة فقال: (بل له ما في السموات والأرض): أي جميع ذلك مملوك له، ومن جملتهم من ادعوا أنه ولد الله. والولادة تنافي الملكية، لأن الوالد لا يملك ولده. وقد ذكر بعض المفسرين هنا مسألة من اشترى والده أو ولده أو أحداً من ذوي رحمه، وموضوعها علم الفقه. ولما ذكر أن الكل مملوك لله تعالى، ذكر أنهم كلهم قانتون له، أي مطيعون خاضعون له. وهذه عادة المملوك، أن يكون طائعاً لمالكه، ممتثالاً لما يريده منه. واستدل بنتيجة الطواعية على ثبوت الملكية.

ومن كان بهذه الصفة لم يجانس الوالد، إذ الولد يكون من جنس الوالد. وأتى بلفظ ما في قوله: {بل له ما في السموات والأرض}، وإن كانت لما لا يعقل، لأن ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبر عن الجميع بما.

ولذلك قال سيبويه: "وأما ما، فإنها مهمة تقع على كل شيء"، ويدل على اندراج من يعقل تحت مدلول ما جمع الخبر بالواو والنون، التي هي حقيقة فيما يعقل، واندرج فيه ما لا يعقل على حكم تغليب من يعقل.

فحين ذكر الملك، أتى بلفظة ما، وحين ذكر القنوت، أتى بجمع ما يعقل، فدل على أن ذلك شامل لمن يعقل وما لا يعقل.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله قانتون؟ قلت: هو كقوله: سبحان ما سخركن لنا، وكأنه جاء بما دون من، تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم، كقوله: {وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً} انتهى كلامه، وهو جنوح منه إلى أن ما وقعت على من يعلم، ولذلك جعله كقوله: ما سخركن لنا. يريد أن المعنى: سبحان من سخركن لنا، لأنها يراد بها الله تعالى وما عندنا لا يقع إلا لما لا يعقل، إلا إذا اختلط بمن يعقل، فيقع عليهما، كما ذكرناه، أو كان واقعاً على صفات من يعقل، فيعبر عنها بما. وأما أن يقع لمن يعقل، خاصة حالة إفراده أو غير إفراده، فلا. وقد أجاز ذلك بعض النحويين، وهو مذهب لا يقوم عليه دليل، إذ جميع ما احتج به لهذا المذهب محتمل، وقد يؤول، فيؤول قوله: سبحان ما سخركن، على أن سبحان غير مضاف، وأنه علمٌ لمعنى التسبيح.

وما: ظرفية مصدرية أي مدة تسخيركن لنا. والفاعل يسخر مضمّر يفسره المعنى وسياق الكلام، إذ معلوم أن مسخرهن هو الله تعالى. وقول الزمخشري: وكأنه جاء بما دون من، تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم، ليست ما هنا مختصة بمن يعقل، فتقول عبر عنهم بما التي لما لا يعقل تحقيراً لهم، وإنما هي عامة لمن يعقل ولما لا يعقل.

1-5: جاء في شرح الجمل لابن الفخار:

جاء في شرح الجمل أن "ما" و"من" تقع كل منهما في ثلاثة مواضع مختلفة:

1-5-1: مواضع وقوع "ما": (على ما لا يعقل) و(على جنس من يعقل) و(على صفة من يعقل):

(... فأما "ما" فإنها تقع على ما لا يعقل). كان ينبغي أن يقول: فأما "ما"، فلها ثلاثة مواضع: أحدها أنها تقع على ما يعقل مطلقاً. والثاني أنها تقع على جنس من يعقل. والثالث أنها تقع على صفة من يعقل، هذا هو الذي جرى به الاستعمال. وقال ابن خروف: إنها تقع على كل شيء مطلقاً، تعلقاً منه بقول الإمام في باب "عدة ما يكون علي الكلام": "ما" مهمة تقع على كل شيء. وبقولهم: "سبحان ما سخركن لنا" و"سبحان ما سيج الرعد بحمده" وبنحو قوله تعالى: "والسما وما بناها" الشمس⁵ إلى غير ذلك مما ورد مثله في التنزيل، والأكثر على خلاف هذا المذهب، فأما قول سيبويه فخرج مخرج الغالب، لأنه لا يستثنى منه إلا الوقوع على ذات من يعقل خاصة.

وأما قولهم سبحان ما سخركن لنا وسبحان ما سيج الرعد بحمده فقال الأستاذ: إن "ما" ههنا مصدرية ظرفية، والتقدير سبحان الله مدة تسخيركن لنا وسبحان الله مدة تسبيح الرعد بحمده، وسبحان اسم علم لا ينصرف كعثمان، وأما "ما" في قوله (والسما بناها) الشمس⁵ وما بعدها فيحتمل أن تكون مصدرية فلا يكون له فيها دليل. فتحصل في "ما" هذه ثلاثة مذاهب.

2-5-1: مواضع وقوع "من" (على ذات من يعقل) و(ذات ما لا يعقل) و(ذات ما لا يعقل في التغليب):

ثم قال: "(ومن تقع على من يعقل،) كان ينبغي أيضا أن يقول أن يقول: و("من" لها ثلاثة مواضع): أحدهما أن تقع على ذات من يعقل والثاني: أن تقع على ذات ما لا يعقل ، إذا نُزل منزلة من يعقل. والثالث: أن تقع على ذات ما لا يعقل في باب التغليب.¹⁰

6-1: جاء في المعجم المفصل للإعراب:

جاء في المعجم المفصل أن "ما" تأتي على وجهين: أ: اسمية ب: حرفية. ويعني هنا الاسمية منها:

1-6-1: "ما" من "الاسميتان :

أ: "ما" اسم استفهام يستفهم به عن الشيء وصفاته، وقد يستفهم به عن الأعيان في غير الناطقين، أو حتى في الناطقين على رأي بعض النحويين ، نح قوله تعالى: "إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم" المؤمنون⁶. فقد استعملت "ما" للعاقل بمعنى: الجواري اللواتي يملكن.

ب: اسم شرط يجزم فعلين، يسمى الأول فعل الشرط والثاني جواب الشرط، نحو: "ما تدرس يفدك." وتكون مبنية.

ج: اسم موصول وتستعمل للعاقل ولغيره، وللمفرد والمثنى والجمع، وللمذكر والمؤنث، وتعرب حسب موقعها في الجملة. محو قوله تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا". النحل⁷³.

د: اسم تعجب: وهي نكرة تامة بمعنى شيء مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ، نحو "ما أكرم الأرض"¹¹

تأتي "من" بخمسة أوجه:

أ: "من" شرطية: اسم شرط جازم ب: استفهامية: اسم استفهام يستعمل للعاقل مبني على السكون...

ج: موصولية: اسم موصول بمعنى (الذي) تستعمل للعاقل أو لما نُزل منزلته، مبني على السكون في محل رفع أو صب أو جر... نحو: "ودّعت من سافر" (..) ونحو قوله تعالى: "ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها". الرعد¹⁵

د: نكرة موصوفة وهي قليلا ما تستعمل نحو قول الشاعر: رب من أنضجت غيظا قلبه ... قد تمنى لي موتا لم يطع..

ه: زائدة: نحو: "كفى بك جاها عن غيرك"¹²

7-1: وجاء في الكافية الكبرى للإسعدي:

"و(ما) الاسمية موصولة واستفهامية وشرطية وموصوفة وتامة بمعنى شيء وصفةً و (من) كذلك إلا في التامة والصفة"¹³

لو أن الأمر اقتصر على "من" و"ما" لكفى النحاءُ الناس مسألة اللبس، لكن الأمر تعدى إلى غير العاقل في غيرهما، وهو ما نسعى بحول الله إلى أن نبينه من لغة القرآن الكريم.
ثانياً: "من" و"ما" في لغة القرآن الكريم:

استعملت "من" للعاقل في مواضع كثيرة وشملت غير العاقل أحياناً.

1: استعمال "من" في العاقل في لغة القرآن الكريم: استعملت "من" في العاقل في لغة القرآن الكريم فجاءت لـ:

1-1: تخصيص العاقل دون غيره :

1-1-1: الشاهد الأول: استعمال "من" للعاقل لتخصيصه دون غيره: قال تعالى: "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (الرعد13)"

جاء في تفسير ابن كثير: "أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان." ¹⁴ "من" في الآية الكريمة تدل على الخلق الذين يرسل الله عليهم الصواعق فتصيبهم وهي نقمة من الله خصوا بها يصيب بها من يشاء من العاقل العالم المجادل، المكلف، لا الجمادات والحيوان والنبات لأنها لا تعي النعمة.

2-1-1 - الشاهد الثاني: قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد15)

جاء في تفسير ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من المشركين. ¹⁵ وجاء في الكشاف للزمخشري: (ولله يسجد) أي ينقادون لإحداث ما أراه فيهم من أعالي شأؤوا أم أبوا، لا يقدر أن يمتنعوا عليه. وتنقاد له ظلالهم أيضاً حيث تتصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ¹⁶ "من" تدل على العاقلين العالمين فالمؤمن يسجد طوعاً من ملائكة وجن وبشر، والكافر يسجد كرهاً... إلا أننا هنا يمكن أن نضيف إليهم كل ما خلق الله وهم بسجودهم يدخلون في حكم العاقل لقيامهم بفعله. أي أنهم حملوا على فعل العاقل وهو السجود، وكذلك الطاعة والعصيان. 1

3-1-1: الشاهد الثالث: قال تعالى: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ." (النمر36)

جاء في تفسير ابن كثير: " (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) ... يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه.. (وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أي: منيع الجناب لا يُضام، من استند إلى جنباه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسول الله ﷺ¹⁷ "ومن يضل الله فما له من هاد". ومن هنا تختص بالدلالة على العاقل لأنه القابل للمهياة والضللال وليست هذان من صفات الجمادات والأنعام..

1-1-4-: الشاهد الرابع: قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (ابراهيم⁴)

جاء في تفسير ابن كثير: "وقوله: (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أي: بعد البيان وإقامة الحججة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، (الْحَكِيمُ) في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من أهل هو لذلك"¹⁸

وجاء في الكشاف للزمخشري: فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء كقوله فمنكم كافر ومنكم مؤمن لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألفاظ، وبالهداية التوفيق والالطف.¹⁹

المقصودون بالهداية أو بالضللال في الآية الكريمة أقوام عاقلون أرسل إليهم رسل منهم دعوهم إلى الحق، فأضل الله منهم من يشاء وهدى من يشاء بعد البيان وإقامة الحججة عليهم، ولا تقام الحججة إلا على عاقل عالم فالدال من مخصصات العاقل والمدلول عاقل.

2-1-: لتعظيم أفعال العاقل وغير العاقل أو صفاته أو أحواله:

تأتي "من" للعاقل وغير العاقل تعظيماً لصفته أو فعله بغرض تحقيق من دونه، أو تعظيماً لحاله بغرض الحض على تعظيمه. كما سنوضحه في الشواهد الآتية:

1-2-1-: الشاهد: قال تعالى: يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ- وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء⁴⁴)

جاء في تفسير ابن كثير: يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتزهمه وتعظمه وتجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته: ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد كما قال تعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَلْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا". (مریم⁹²) وقوله: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ- وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحُهُمْ) أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين²⁰.

وجاء في الكشاف للزمخشري: والمراد أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته فكأنها تنطق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها..... (من فيهن) يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة والثقلان، وقد عطفوا على السماوات والأرض فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه.²¹

شمل التعظيم السماوات والأرض ومن فيهن من ملائكة ومن إنس وجان فحُملن على فعل العاقل من تسبيح بحمد الله، وشمل كل شيء على وجه الإطلاق مما في السماوات والأرض وهو ما جعل العاقل وغير العاقل يستويان بالتعظيم بالتسبيح الذي يعرف من العاقل ويُفقه من لغته، وبالتسبيح الذي أخبر الله تعالى به مما لا نفقهه. وهنا وجب إدراج المسبَّح من غير العاقلين ضمن العاقلين لأنهم يؤدون وظيفة العاقل على حد سواء. وهؤلاء جميعاً أعظم ممن يخاطبهم الله ممن ادعوا أن له ولداً. وسنعود إلى هذا ومثله في الحديث عن التعظيم والتحقيق.

2:- "ما" لغير العاقل:

تستعمل "ما" لغير العاقل أصلاً، كما يمكن أن تتحول دلالتها فتستعمل للعاقل تحقيراً لفعله أو لصفته أو مرتبته مقابل الأعظم.

2-1: الشاهد الأول: قال تعالى "وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (يوسف: 53)

جاء في تفسير ابن كثير: " (وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ) تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) أي: إلا من عصمه الله تعالى"²² وجاء في الكشاف: (إن النفس لأمارة بالسوء) أراد الجنس أي أن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات. (إلا ما رحم ربي) إلا لبعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. ويجوز أن يكون ما رحم ربي في معنى الزمان: أي إلا وقت رحمة ربي: يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة.²³

من تفسير الآية ندرك أن "ما" التي لغير العاقل حلت محل "من" التي للعاقل تحقيراً للنفس الأمارة بالسوء، ومنها تحقير من نفسه كذلك، لأنه لو كان عاقلاً عالماً ما أمرته نفسه بالسوء فأطاعها، وما اقترفت الذنب أو همت باقترافه، ولأن الله رحيم بعباده أوجب لها الرحمة بمشيتها؛ ولذلك نرى التحقير وضع صاحبه موضع غير العاقل قبل أن تشمله الرحمة. فجاء الدال غير العاقل لمدلول عاقل بدلالة من لا يعقل تحقيراً.

2-1: الشاهد الثاني: قال تعالى: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (الحديد¹)

جاء في تفسير ابن كثير: "يخبر الله تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى "يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ الْأَسْفَلُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ - وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (الإسراء: 44) وقوله "وَهُوَ الْعَزِيزُ" أي: الذي قد خضع له كل شيء "الْحَكِيمُ" في خلقه وأمره وشرعه".²⁴

إن الله تعالى في عظمته وجلاله يخبر بأنه العزيز الحكيم، يخضع له كل شيء في السموات والأرض، فهو هنا محل التعظيم لذاته جلّ وعلا، وهو مما لا بد من أن يكون ما سواه خاضعا خاشعا يسبح بحمده؛ الأمر الذي يجعل ما في السموات والأرض موضع الخضوع والاستصغار، ولذلك حلت "ما" محل "من" تحقيرا واستصغارا لما دون الواحد المتفرد في عظمته وسلطانه. وقد يرى البعض أن هذا لا يستقيم مع تعظيم "ومن فيهن" في الآية السابقة: يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ الْأَسْفَلُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ - وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء: 44) سيما والأمران متشابهان. والصواب أن الفرق يتضح ويتحدد بفهم الآيتين فهما دقيقا؛ ففي هذه الآية يوجه الله تعالى الخطاب للمشركين الذين قالوا اتخذ الله ولدا... فيؤبخهم، ويبطل دعواهم، ويحقر عقولهم، ويردعهم بالإشارة إلى أن الأعظم منهم والأرفع وهي السموات والأرض، وكل شيء مما خلق يُسَبِّحُ بحمده، وعجزتم أن تكونوا كأعظم أو أضعف ما خلق الله من الذين يسبحون بحمده فما عقولكم التي لم تدرك عظمة الله ووحدانيته إلا أحقر من أن تتقوّل على الله قولاً، تعالى عنه علوا كبيرا، فما أعجزكم أن تكونوا كأعظم أو حتى كأصغر هذه الأشياء التي تسبح لله، أي أن في الآية تحقيرا للمتقولين على الله في مقابل تعظيم المسبّحين له. فالفرق بين "من" التي حلت محل "ما" في هذه الآية هو تعظيم مدلولها من السماوات والأرض وكل شيء في مقابل المشركين؛ وبين "ما" في قوله: يسبح لله ما في السماوات والأرض. "هو تحقير مدلولها أمام عظمة الله. ومن هذا يتبين أن لتعظيم المدلول كما لتحقيره تأثيرا في "عاقلية الدال" من عدمها، وهو ما سنوضحه في مواضع قادمة.

ثالثا: دلالة العاقل وغير العاقل في القرآن الكريم:

1-: ورود غير العاقل بدلالة العاقل: ورد في القرآن الكريم "دال" على غير العاقل ب "مدلول" العاقل كذكر بعض الحيوانات والجماد ويكون ذلك في الحالات التالية:

1-1-: حمل غير العاقل على فعل العاقل أو صفته: إذا حمل غير العاقل على فعل العاقل أو صفته تحولت دلالته إلى العاقل واختصت به أحكامه.

1-1-1: الشاهد الأول: قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (النور: 45).

جاء في تفسير ابن كثير: يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، (فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) كالحية وما شاكلها، (وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) كالإنسان والطير، (وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: (يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)²⁵

وجاء في "الكشاف" للزمخشري: (... فإن قلت: لم سمي الزحف على البطن مشيا؟ قلت: على سبيل الاستعارة، كما قالوا في الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر، ويقال فلان لا يتمشى له أمر، ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفة والمشفر مكان الشفة ونحو ذلك أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع المشين).²⁶

من معنى الآية ندرك أن الله تعالى خالق كل شيء حي من ماء، وأن الإنسان أعظم وأكرم وهو المتميز بالمشي على رجلين، فالمشي فعل الإنسان وما تبقى من الدواب والزواحف والبهائم محمول على فعل الإنسان العاقل، ولذلك قال تعالى: "فمنهم من يمشي على بطنه..." وليس المشي على البطن بمسوّغ إلا بحمل الزاحف على فعل العاقل، ومن يمشي على أربع أو يسبح أو يطير مما خلق الله.

لقد وضعت "من" هنا موضع "ما" لسببين: لتعظيم أمر المخلوقات وحركاتها وسكناتها بذكرها وحملها على فعل العاقل، فكان الدال عليها "من" المخصص للعاقل، لأنها تمشي كما الإنسان، ثم يلحق بها كل دابة يشاء الله خلقها وهو القدير، ولم يذكرها ولم يحدد فعلا لها أو صفة، ولم يحملها على صفة العاقل ولا على فعله فكان الدال عليها "ما" المهمة التي لغير العاقل. أما السبب الثاني فهو حمل تلك الدواب التي ذكرت على فعل العاقل حيث كان تخصيصا لتعظيم أمر خلقها من ماء واحد على اختلافها وتنوعها في كل فعل، لتشمل كل ما خلق الله مما عرف الإنسان ثم أعقها بخلق ما لم يعرف من قبل، فكان لكل مذكور دأله المناسب له والمطابق لطبيعته، ومدلوله المطابق لمقتضى الحال، وما يفهم منه، فعظم ما شاء في عين المخاطب ووضع ما شاء في ملكوت قدرته فتفرد بالعظمة المطلقة والقدرة المطلقة.

2-1: غير العاقل بدلالة العاقل عند التعظيم الحقيقي: عند تعظيم غير العاقل فإنه يأتي بدلالة العاقل إظهارا لقداسته أو مكانته فهو معظم لذاته قصد الحض على تعظيمه أو افتراضه عظيما لإثبات العكس.

1-2-1: الشاهد الأول: قال تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّادِّ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ". (البقرة 197)

جاء في تفسير ابن كثير: "اختلف أهل العربية في قوله: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) فقال بعضهم تقديره الحج حجُّ أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذلك صحيحا، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن زاهوية، وذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عمرة؟ فيه قولان عنه، والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره... والدليل عليه قوله تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) وظاهر التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن: وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة فدلَّ على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة"²⁷

في الآية الكريمة شاهدان: "معلومات" و "فمين": معلومات صفة لأشهر التي هي جمع تكسير لاسم غير عاقل تقتضي العربية في غير هذا الحال أن يوصف بمفرد مؤنث، فيقال أشهر معلومة، ووصفها بجمع مؤنث سالم للقلّة والحمل على العاقل؛ ومرّد ذلك تعظيم الحج الذي هو من شعائر الله، وقد قال الله تعالى: "ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب."³²

إن التعظيم ثابت لشعيرة الحج ومنها لميقاته، فالأشهر المعلومات هي مواقيت الحج، فعظم الميقات بعظمة الشعيرة. أما "فمين" فقد أضمرت الأشهر بـ "هن" التي للعاقل وليس بالضمير "ها" كما في العادة، ومرّد ذلك هو التعظيم. فأشهر الحج هن أشهر معلومات أضمر لهن بضمير العاقل العالم تعظيما. وسنزيد في تفصيل ذلك في الآية القادمة.

2-2-1: الشاهد الثاني: قال تعالى: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ." (التوبة³⁶)

جاء في تفسير ابن كثير: "وقوله تعالى: (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ) فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يُقال لهم: (البّسل)، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديدا. وأما قوله: (ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب ومضر الذي بين جمادى وشعبان....) وقال قتادة في قوله: (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) إِنَّ الظُّمَّ في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا، من الظُّمَّ فيما سواها، وإن كان الظُّمَّ على كل حال عظيما، ولكنَّ الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى صَفَايَا مِنْ خَلْقِهِ، اصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رِسَالًا وَمِنَ النَّاسِ رِسَالًا وَاصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ ذَكَرَهُ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَرْضِ الْمَسَاجِدَ، وَاصْطَفَى مِنَ الشُّهُورِ رَمَضَانَ، وَالْأَشْهُرَ الْحَرَمَ، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَعَظَمُوا مَا عَظَّمَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا تَعَظَّمُ الْأُمُورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللَّهُ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ"²⁸

وجاء في الكشاف للزمخشري: (... وكانوت يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه، وسموا رجبا الأصم ومُنصل الأسنة حتى أحدثت النسب فغيروا)، (فلا تظلموا فيهن). في الحرم أنفسكم، أي لا تجعلوا حرامها حلالاً.²⁹

يُعلم الحقُّ تبارك وتعالى خلقه مبينا عدة الشهور جميعها أنها اثنا عشر شهرا، ثم يفصل فيقول: "منها أربعة حُرْم"، وهي أربعة خصَّها بالقول: "فلا تظلموا فيهن أنفسكم". والدارس للآية الكريمة لا بد أن يلحظ أن الشهور أضمر لها بـ "ها" على ما جرت عليه العربية من حكم غير العاقل بينما أضمر للحُرْم بـ الضمير "هن" المخصص للعاقل. فما الفرق؟. الفرق هو أن الشهور في البداية إنما ذكرت لتعيين عدتها، وأن منها أربعة لها شأن خاص هي الأشهر الحُرْم، ولأن الحرمات تستوجب تعظيما فقد قال الحق جلَّ وعلا: "ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه".³⁰ حملت الحرم على حكم الاسم العاقل تفريقا بينها وبين غيرها من الشهور بالتعظيم.

مما سبق يمكن أن ندرك أن للتعظيم في لغة القرآن الكريم خاصية حمل "مدلول" غير العاقل على "دال" العاقل تفريقا بينه وبين غيره وتمييزا له عن غيره بما أوجب تعظيمه ليعلم مكانته وقداسته، فالأشهر الحرم من الشهور، لكنها تميزت دلالة فاختلفت عن غيرها وأضمر لها بضمير العاقل "هن" تعظيما لأمرها.

3-2-1: غير العاقل بدلالة العاقل عند افتراض التعظيم: حكم غير العاقل عند افتراض التعظيم أن يأتي بدلالة العاقل قصد إثبات العكس..

4-2-1: الشاهد: قال تعالى: "قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ". (الأنبياء: 63)

جاء في تفسير ابن كثير: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) يعني: الذي تركه لم يكسره (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد³⁰

جاء في الكشاف للزمخشري: (... ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهم كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق من يُعبد ويُدعى إليها أن يقدر على هذا وأشد منه).³¹

يعتقد المشركون من قوم إبراهيم عليه السلام أن لأصنامهم شأنا عظيما، فكانت مخاطبتهم على قدر اعتقادهم في عظمة آلهتهم، فأنزلها منزلة العاقل الذي يُسأل فيجيب استهزاء وسخرية من عقل ضلَّ ضلالا بعيدا، وإمعانا في تحدّهم وإقامةً للحجة وتسفيها لعقولهم التي لا بدَّ أن تدرك أن الصنم لا يقدر على نطق.

لذلك جاء الدال "هم" في كبيرهم عوض "ها"، وهو ما يفهم منه أن التعظيم أو التحقير مرتبط بالجانب المقصود لا بالأصل؛ فالصنم حقير أصلاً، والذي يعتقده إليها أحقر، لكن إقامة الحجة اقتضت الأخذ بفرضية المعتقد ليثبت العكس.

2-1-5: غير العاقل بدلالة العاقل للتعظيم مقابل غيره: قد يأتي غير العاقل بدلالة العاقل تعظيماً له في مقابل غيره.

2-1-6: الشاهد: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ". (الحج:18)

جاء في تفسير ابن كثير: "يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُ لَظَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) (النحل:48) وقال ها هنا: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور، (وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ). (الإسراء:44) وقوله: "والشمس والقمر والنجوم" إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربية مسخرة.³²

وجاء في الكشاف للزمخشري: "... سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدييره وتسخيره لها سجوداً له تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد وهو السجود الذي كل خضوع دونه.³³

يخبر الله أنه المستحق للعبادة، وأن الذين يعبدونه ممن في السموات والأرض إنما استحقوا أن لا يكونوا ممن حق عليهم العذاب جزاء بعبادتهم لله وطاعته. والعابدون الساجدون من البشر والملائكة والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب خليط من العالمين العاقلين وغير العاقلين إنما عظم أمرهم بسجودهم، فارتقى غير العاقل إلى مرتبة العاقل تعظيماً، لأن السجود فعل العاقل ولما كان من غيره كان أمراً عظيماً، وما عظم من هذه المذكورات إنما هي في مقابل المتحدث عنهم من الذين عموا أن يروا ذلك فتعظيم الساجدين يقابله تحقير غيرهم من الكافرين. أما في قوله تعالى: "وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ". (الحج:18) فإن التصريح بالإهانة كان بدلالة "من" للعاقل الذي استحق ذلك، لأن التحقير مصرح به، ولا معنى للتحقير إن لم يكن للعاقل.

2- ورود العاقل بدلالة غير العاقل للتحقير: مثلما يأتي غير العاقل بدلالة العاقل للتعظيم، يأتي العاقل بدلالة غير العاقل عند التحقير، ولا يراعى في ذلك حمله على صفة العاقل أو على فعله لأن التعظيم لغيره.

1-2: الشاهد الأول: قال تعالى: "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (الجمعة¹)

جاء في تفسير ابن كثير: يخبر تعالى أنه (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (الاسماء:44) ثم قال: "الملك القدوس" أي هو مالك السماوات والأرض المتصرف فيها بحكمه، وهو "القدوس" أي المنزه³⁴ ..

لا بدّ لدارس الآية الكريمة العالم، أن يأخذ في الحسبان أن العاقل وغير العاقل من المسيحيين استوتوا فكانوا بدلالة غير العاقل، لا لأن العاقل اختلط بغير العاقل ولكن لأن المسيحيين جميعاً أدنى من الله المقصود بصفاته المؤكدة بفعل الذين يسبحون بحمده، فهم في ضعة وتحقير مقابل عظمة الله، والتعظيم هنا لله وحده، بأسمائه الملك القدوس العزيز الحكيم تفرد به لما أسلفنا من الصفات والأسماء فجاء المسيحيون من عاقل وغير عاقل في مرتبة التحقير إذ هم أمام عظمة مطلقة لا ترقى إليها أخرى ولا تقترن بها فلم يرق غير العاقل إلى مرتبة العاقل وإنما استويا في الضعة أمام الملك القدوس العزيز الحكيم.

2-2: الشاهد الأول: قال تعالى: "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (التغابن¹)

جاء في تفسير ابن كثير: "... تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها؛ ولهذا قال: "له الملك وله الحمد" ي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره، وقوله وهو على كل شيء قدير أي: مهما أراد كان لا ممتنع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن³⁵ ..

اختلط ما في السماوات وما في الأرض من عاقل وغير العاقل وحملوا على فعل العاقل وهو التسبيح، وقد جاءت كلها بدلالة غير العاقل تصغيراً لشأنها لأنها مهما تكن تظل صغيرة في مقابل عظمة الأعظم الذي له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

2-3: الشاهد: قال تعالى: "سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (الحشر¹)

وقال ابن كثير: "يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء إلا يسبح له ويمجده ويقدره، ويصلي له وحده³⁶ ..

وجود الدال "ما" ألغى الفرق بين العاقل وغير العاقل تحقيراً لمن دون العزيز الحكيم، فهو العزيز الحكيم القوي العظيم الغني بعزته المطلقة .

3. ورود غير العاقل بدلالة العاقل عند حمله على فعل العاقل. مثلما يأتي غير العاقل بدلالة العاقل لحمله على صفة العاقل أو وصفه أو لتعظيمه، قد تأتي دوال الجمادات بدلالة العاقل في انزياح سوى بينها وبينه.

3-1 الشاهد الأول: قال تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" (الأحزاب: 72)

جاء في تفسير ابن كثير: "قال العوفي: عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقها، فهل أنت أخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها قال: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها"³⁷

في هذه الآية نجد الإنسان الظلوم الجهول الذي حمل الأمانة في مقابل السماوات والأرض والجبال التي أبت حمل الأمانة وأشفقن منها، فكانوا جميعاً على حد السوء من العرض؛ ولما كان المعروف أمانة بثقلها حملها بعضهم وأشفق منها آخرون، فحمل مدلول غير العالم العاقل (السماوات والأرض والجبال) على فعل العاقل العالم (الإنسان) وصفاته من الإيذاء والإشفاق والتحمل، والظلم والجهالة. وهو ما يثبت ما ذهبنا إليه من أن غير العاقل إذا حُمِلَ على فعل العاقل أو صفته ذكر بدال العاقل، وبما يقتضيه التركيب له من الإضمار والمطابقة العددية وصفاً وإسناداً.

3-2: الشاهد الثاني: قال تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (الأنبياء: 33)

جاء في تفسير ابن كثير: "أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارةً ويقصر أخرى، وعكسه الآخر. (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنورٍ خاص آخر، وفلكٌ آخر، وسير آخر، وتقدير آخر، (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أي: يدورون"³⁸

لا ريب في عظمة الخالق وهو يخبر عباده بأنه هو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر بصفاتها التي يرونها من ظلام الليل وسكونه وضياء النهار وحركته وضياء الشمس والقمر ليشير إلى ما لا يرون ولا يدركون، وهو أنها تسبح كلها في فلك بما يقتضيه ذلك من نظام وتقدير، وفي ذلك تعظيم لهذا الخلق يجب الإقرار به، واستوجب ذلك التعظيم أن تحمل المعظّمات على مقتضيات التركيب الخاص بالعاقل العالم.

3-3: الشاهد الثالث: قال تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (النمل: 18)

جاء في تفسير ابن كثير: "أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها ففهم ذلك سليمان، عليه السلام منها"³⁹

في الآية الكريمة حمل النمل مفردا وجمعا على فعل العاقل العالم وصفاته ابتداء من القول وانتهاء بالأمر والتبرير له والتوقع، فالنملة التي خاطبت النمل نهبت و أمرت ثم برزت سبب أمرها وخوفها من سليمان وجنوده، وتوقعت أن لا يشعروا بالنمل كأنما هي على علم من أن سليمان وجنوده لن يفعلوا عامدين... فالنمل خوطب جمعا بوادهم وذكرت الآية أن لهم مساكن وليس جحورا وحفرا. وفي تلك المقارنة بين فعل النملة وقولها وفهم سليمان عليه السلام لها وتبسمه إنما في ذلك تعظيم لشأنها ولسليمان الذي علمه العظيم الأعظم ما لم يعلمه غيره.

إن تعظيم شأن النمل من تعظيم شأن سليمان عليه السلام، وفي تعظيمهما تعظيم لله جلت قدرته؛ وما حمل النمل على فعل العاقل إلا آية أخرى تثبت ما ذهبنا إليه من أمر العالم العاقل وغير العاقل في لغة القرآن الكريم المعجزة.

3_4: الشاهد الرابع: قال تعالى: "قال تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ". (يوسف43)

جاء في تفسير ابن كثير: "هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها؟"⁴⁰

وجاء في الكشاف للزمخشري: رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته ، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حينها وسبع أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها.⁴¹

رأى الملك عجبا فعظم ما رآه من البقرات السبع التي أضمر لها بالضمير "هن" المخصص للعاقل، ومن حكمة الله أن كانت هذه الرؤية بداية تحول في حكم مصر وفي عبادتها ليرتفع صوت الحق بإذن الله ويعلو يوسف عليه السلام وتتحقق رؤيته من سجود الكواكب الأحد عشر والشمس والقمر له، وفي ذلك تتجلى قدرة الله وعظمته أن جعل الرؤيتين عظيمتين. كانت الأولى على لسان نبي الله يوسف والثانية على لسان ملك مصر الذي عظم ما رآه...واقضى القص أن تعظم الرؤى فحمل غير العاقل فيها على العاقل تعظيما للأمر وتمهيدا لنتائج العظمى ليأتي العظيم استنادا لعظيم، وهذه هي لغة القرآن الكريم المعجزة.

4-ورود العاقل وغير العاقل بدلالة غير العاقل عند التحقير: عند التحقير يأتي العاقل أو غير العاقل أو كلاهما بدلالة غير العاقل، ومرد ذلك قصد التحقير لا قصد التغليب والاختلاط.

4:-الشاهد: قال تعالى: "أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ". (النحل:48)

جاء في تفسير ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل وكذا قتادة والضحاك، وغيرهم. وقوله: (وَهُمْ دَاخِرُونَ) أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضا: سجد كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. وأنزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم".⁴²

وجاء في الكشاف للزمخشري: "... فهلا جيء بـ "من" دون "ما" تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت: لأنه لو جيء بـ "من" لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم. (يخافون) يجوز أن يكون حالا من الضمير في لا يستكبرون: أي لا يستكبرون خائفين.⁴³

على الرغم من أن الآية في الكافرين الذين عموا أن يروا ما خلق الله من شيء يتفياً ظلالة، وأن تلك الأشياء حملت على فعل العاقل وهو السجود، إلا أن "الدال" عليها في التركيب كان لغير العاقل، ومرد ذلك الاستصغار أو ما سميناه "التحقير"، ولعل قوله تعالى: "وهم داخرون" أدلّ على ذلك من كون أصلها الظاهر هو غير العاقل، دل عليها المخصص للعاقل بحملها على فعله فانتنى العاقل بالتصريح بالتذليل والتحقير.

والخلاصة فإن مسألة العاقل وغير العاقل في لغة القرآن الكريم يمكن أن يبوب لها كالاتي:

باب "ما" و"من" الموصولتين ودلالتهما الأصلية:

أ: فتأتي "من" للعاقل و"ما" لغير العاقل، فإن تحولتا عن دلالتهما الأصلية:

أ-1: تأتي "ما" بدلالة العاقل إذا حملت على فعل العاقل أو صفته.

أ-2: تأتي "ما" بدلالة العاقل إذا قصد بها التعظيم سواء لذاتها أو لغيرها.

أ-4: عند اختلاط العاقل بغير العاقل يغلب العاقل عند التعظيم وغير العاقل عند التحقير.

باب غير العاقل من الأسماء:

أ: يضم لها بالمفرد المؤنث مفردة أو جمعا (وإذا العشار عطلت) (والجبال أرساها). وتوصف بالمفرد المؤنث.

ب: يضم لها بما يضمم للعاقل في الجمع في حالة التعظيم... (فمن فرض فيمن الحج).

مصادر البحث ومراجعته:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1- الأشموني، حاشية الصبّان (شرح الأشموني) على ألفية ابن مالك، تحقيق محمود بن الجميل، مكتبة الصفاء، القاهرة، ط 1، 2002، بيروت، ط 3، 1987.
 - 2- بهاء الدين بن عقيل، شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار العلوم الحديثة، بيروت، 1964، ط 14.
 - 3- خليل بن الملا حسين الإسعدي، الكافية الكبرى في علم النحو، تحقيق إلياس قبلان التركي، دار صادر، بيروت، ط 1، 2007.
 - 4- جار الله محمود الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر، دط، 2006.
 - 5- طاهر يوسف الخطيب، المعجم المفصل في الإعراب، دار الكتب العلمية بيروت، ط 6، 2013.
 - 6- عماد الدين اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد بن سامح، دار ابن الجوزي، القاهرة، دط، 2009.
 7. محمد بن علي بن أحمد بن الفخار، شرح الجمل (شرح كتاب الجمل للزجاجي)، تح روعة محمد ناجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2013.
 8. موفق الدين بن يعيش النحوي، شرح المفصل، تحقيق أحمد السيد، دار العلوم، القاهرة، دط، دت.
 - 9- ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار إحياء العلوم بيروت، ط 3، 1987.
- الهوامش:

¹ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، دار إحياء العلوم بيروت، ط 3، 1987، ص 53..54

² حاشية الصبّان (شرح الأشموني) على ألفية ابن مالك، تحقيق محمود بن الجميل، مكتبة الصفاء، القاهرة، ط 1، 2002، ص 244.

³ نفسه، ص 245.

⁴ نفسه، ص 246.247.

⁵ نفسه، ص 248.

⁶ شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش النحوي، تحقيق أحمد السيد، دار العلوم، القاهرة، دط، دت،

المجلد 2، ص 108.

- ⁷ نفسه، مج2، ص109.
- ⁸ نفسه، م2، ص110.
- ⁹ شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، بآء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، دار العلوم الحديثة، بيروت، 1964، ط14، ج1، ص147-148.
- ¹⁰ شرح الجمل (شرح كتاب الجمل للزجاجي)، أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد المعروف بابن الفخار، تحقيق روعة محمد ناجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، ج1، ص125، 124.
- ¹¹ المعجم المفصل في الإعراب، طاهر يوسف الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط6، 2013، ص402، 403.
- ¹² نفسه: ص432، 434.
- ¹³ الكافية الكبرى في علم النحو، خليل بن الملا حسين الإسعدي، تحقيق إلياس قبان التركي، دار صادر، بيروت، ط1، 2007، ص183، 184.
- ¹⁴ تفسير القرآن العظيم، عماد الدين اسماعيل بن كثير، تحقيق أبو صهيب محمد بن سامح، دار ابن الجوزي، القاهرة، دط، 2009، المجلد2، ج4، ص280.
- ¹⁵ نفسه، مج2، ج4، ص282.
- ¹⁶ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر، دط، 2006، ج2، ص354.
- ¹⁷ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج4، ج7، ص62، 61.
- ¹⁸ نفسه، مج2، ج4، ص301.
- ¹⁹ الزمخشري، المصدر السابق، ج2، ص367.
- ²⁰ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج3، ج5، ص51.
- ²¹ الكشاف، جار الله الزمخشري، ج2، ص451.
- ²² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج2، ج4، ص250.
- ²³ الكشاف، الزمخشري ج2، ص327.
- ²⁴ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج4، ج8، ص3.
- ²⁵ نفسه، مج3، ج5، ص364.
- ²⁶ الكشاف، الزمخشري، ج3، ص71.
- ²⁷ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج1، ج1، ص351، 350.
- ²⁸ نفسه، مج2، ج3، ص94، 95.
- ²⁹ الكشاف، الزمخشري، ج2، ص188.
- ³⁰ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج3، ج5، ص222.
- ³¹ الكشاف، الزمخشري، ج2، ص577.
- ³² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج3، ج6، ص257.
- ³³ الكشاف، للزمخشري، ج3، ص8.
- ³⁴ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج4، ج8، ص74.

- 35 نفسه، مج4، ج8، ص87.
- 36 نفسه، مج4، ج8، ص36.
- 37 نفسه، مج3، ج5، ص257.
- 38 نفسه، مج3، ج5، ص217.
- 39 نفسه، مج3، ج6، ص63.
- 40 نفسه، مج2، ج4، ص248.
- 41 الكشاف، الزمخشري، ج2، ص322.
- 42 تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مج2، ج4، ص399.
- 43 الكشاف، الزمخشري، ج2، ص412.